ISSN: 1112-9212 / EISSN 2602-5043	2021 (02) 14	مجلة تطوير العلوم الاجتماعية (31،20)
تاريخ النشر: 2022/04/12	تاريخ القبول: 2022/03/29	تاريخ الاستلام: 2021/07/08

سوسيولوجيا الذبيحة في المجتمع المحلي

فضاء الشيخ عبد الرحمن النعاس بورقبة بمدينة الجلفة –أنموذجا–

Sociology of sacrifice in the local society

Space of Sheikh Abderrahman Naas Bouragba in Djelfa city –as a Model-

د. عبد القادر حميدة* [1]

1 جامعة زيان عاشور الجلفة –الجزائر

ملخص: الأسئلة التي يستثيرها هذا المقال هي أسئلة سوسيو–انثربولوجية ذات طابع ثقافي وتاريخي، ففي الشق التاريخي سنتتبع مسار السؤال كيف تطور الإبدال الذبائحي عبر الديانات التوحيدية الثلاث، مسائلين أيضا زمن الجاهلية، وفي الشق الثقافي سنقوم بقراءة سوسيو انثربولوجية للذبيحة في فضاء المجذوب الشيخ عبد الرحمن النعاس بورقبة (1905–1993) بمدينة الجلفة، باعتباره فضاء ما تزال الطقوس تمارس فيه إنتاجا واستمرارا، وفق آليات هيمنة وخضوع، فاعلوها الرئيسيون هم لخوان Les Khouanes والمنفعلون –إن صح التعبير– هم الضحايا الذبائحية المتتالية، التي تتحدث بلغة الأنثربولوجيا عن التنافس rivalité ، وعن ما تحمله عن الفرد المضحي (الخوني).

ويهدف هذا المقال أساسا إلى تلمس مكانة الذبيحة ووصف طقوسها داخل فضاء يمكن تسميته بحذر ابستمولوجي بالفضاء "المقدس". وقد توصلنا من خلاله إلى معرفة أدوار الذبيحة في المجتمع المحلي من تقوية للروابط الاجتماعية أفقيا وتقوية العلاقة مع الخالق عموديا.

الكلمات المفتاحية: الذبيحة؛ المجتمع المحلي؛ القربان؛ المريدون (لخوان)؛ المجذوب.

Abstract: The questions raised by this article are socio-anthropological questions of a cultural and historical nature. In the historical part, we will follow the course of the question: how did the sacrificial exchange develop through the three monotheistic religions?, And in the cultural part we begin a socio anthropological reading of the sacrifice in the space of Majdoub Sheikh Abderrahman Naas Bouragba (1905-1993) which is located in the city of Djelfa. As a space in which the rituals are still practiced according to mechanisms of domination and submission, their main actors are "Les Khouanes". Essentially, this article aims to find the position of the sacrifice and to describe its rituals in a space which can be called with - an epistemological modesty - "sacred" space. And through it, we seek to know the roles of sacrifice in the local community in the horizontal strengthening of social ties and the vertical strengthening of relationships with the Creator.

Keywords: The sacrifice; Local society; The offering; The khouanes; Keywords; Mejdoub (our own concept)

*Corresponding author, e-mail: a.homida@univ-djelfa.dz

1- مقدمة

اقترن تقديم القرابين للقوى الغيبية والعلوية أو المتعالية بالوجود البشري منذ البدء، فها هما ابنا آدم قد قربا قربانا –كما تشير إليه الآية 27 من سورة المائدة– ثم ارتبطت القرابين بعد ذلك بالأرض، حيث اعتبرها الإنسان أمه وإلهه ومصدر رزقه ومحل عيشه، فهي طينته وحاضنته، على ظهرها يعيش، ومن خيراتها يقتات، وفيها يدفن بعد رحيله، قال تعالى: "مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ" (طه، 55)، ومنه فقد نمت معتقدات مفادها أن الأرض لكي تحن على أبنائها فهي محتاجة لقربان يبرهن به الناس عن حبهم لأمهم (إلاههم) وعن استعدادهم للتضحية من أجلها فكان الناس يقدمون لها أجمل بناتهم وانتقلت العادة لنهر النيل أيضا وهكذا مع الزمن جسدوا تلك القرابين البشرية المؤنثة في آلهة وعبدوها فقد "كان الناس يعتقدون أن اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى آلهات، بنات إله أكبر، يشفعن عنده" (السعفي، 2003، 45).

ومن هذا المنطلق فإننا سنسعى في مقالنا هذا، إلى فهم ووصف القربان في المجتمع المحلي، وذلك بإلقاء نظرة "تعاقبية" Diachronique (مفهوم دي سوسير) وذلك بالحديث عن الذبيحة في بعض الأزمنة التاريخية، ثم نشرع في وصف وفهم الجانب "التزامني" Synchronique (مفهوم دي سوسير) وذلك بحصر بحثنا في المجتمع المحلي، وبالضبط في مقام المجذوب الشيخ عبد الرحمن النعاس بورقبة (1905–1993).

ولأن كل ممارسة تقوم على تمثل، فإن مهمتنا الأساسية في هذا المقال ستكون محاولة معرفة مختلف التمثلات السوسيو–انثربولوجية للذبيحة في مثل هذه الفضاءات المقدسة. ولأن هناك العديد من الأسئلة المرتبطة بهذا الطقس، فقد ارتأينا استدعاء نظرية التمثلات الاجتماعية وفق مقاربة جان كلود آبريك (1941–2012) Jean Claude Abric المعروفة بالنواة المركزية Le noyau central، ورمزيات: بيير بورديو (1930–2002) Pierre Bourdieu، وحفريات ميشال فوكو (1936– 1984) Michel Foucault، وقبل هذا وذاك فإن تقديم لمحة سوسيو–تاريخية للذبيحة يعد أمرا واجبا في هذا المقام.

2- الذبيحة مقاربة سوسيو–تاريخية:

2-1- الذبيحة في الجاهلية:

لقد كان الحج الجاهلي يتم استرضاء للآلهة، وكان الناس يقدمون الذبائح للأصنام طلبا للسعة في الرزق، إذ أن "الذبيحة" و"إراقة دم الحيوان" تعتبر بابا واسعا لاستجلاب الرزق، وفي معنى ذلك

جاءت الآية القرآنية: "فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ" (البقرة، 200). ومنه نستنتج أن ثنائية الفقر والإيمان هي التي حملت هؤلاء على التقرب من آلهتهم بالنذور والذبائح وعلى الحج رغم قلة ذات يد أغلبهم آملين في استجابة تلك الآلهة ومنّها عليهم بالبركة والرزق والصحة والعافية.

من هذا المنطلق الأساسي، نستطيع أن نفهم السر في تعظيم الجاهليين لبيت الله الحرام، هذا التعظيم الذي سيتعزز بأبعاد أخرى، ثقافية ودينية واجتماعية، ونستطيع أن نستحضر هنا ما قاله المسلمون لنبيّهم بهذا الشأن حيت يروى أنهم قالوا "يا رسول الله، كان أهل الجاهلية يعظمون البيت بالدم، فنحن أحق أن نعظمه" (جواد، 1993، 6، 196)، وكان هذا التعظيم عمليا عبارة عن إراقة دم الذبيحة على النصب.

بل ها هو نبي الإسلام نفسه محمد عليه الصلاة والسلام، يقدّم قربانا للعزى زمن الجاهلية، كما يخبرنا عن ذلك الكلبي في كتاب الأصنام بقوله: "وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها يوما (أي العزى) فقال: لقد أهديت للعزى شاة عفراء، وأنا على دين قومي" (الكلبي، 1995، 19).

وقد كانت للذبيحة في الزمن الجاهلي طقوس من أمكنة وأزمنة، فمن الشعائر المتعلقة بمنى نحر الذبائح، التي كانوا "ينحرونها على الأنصاب وعلى مقربة من الأصنام، فتوزع على الحاضرين ليأكلوها جماعة أو تعطى للأفراد. وقد تترك لكواسر الجو وضواري البر فلا (يصد عنها إنسان ولا سبع). وتبلغ ذروة الحج عند تقديم العتائر، لأنها أسمى مظاهر العبادة في الأديان القديمة" (جواد، 1993، 6، 388)، إضافة لذلك فقد "كان الجاهليون يقلدون هديهم بقلادة، أو بنعلين، يعلقان على رقبتي الهدي، إشعارًا للناس بأن الحيوان هو هدي، فلا يجوز الاعتداء عليه، كما كانوا يشعرونه. والإشعار الإعلام. وهو أن يشق جلد البدنة أو يطعن في اسنمها في أحد الجانبين بمبضع أو نحوه، وقيل في سنامها الأيمن حتى يظهر الدم ويعرف أنها هدي. والشعيرة البدنة المهداة" (جواد، 1993، 6، 388).

وقد كانت لهم كذلك أماكن أخرى، ينحرون عندها ويتقربون بدم الذبائح، مثل "ذي الخلصة" بأسفل مكة، وشجرة يذبحون عندها تقربا من العزى. وما حادثة افتداء "عبد الله" والد النبي محمد – عليه الصلاة والسلام– إلا مؤشر واضح على قيمة الذبيحة، وكونها قد تفتدي بحياتها البشر، وسيأتي تفصيل ذلك لاحقا حينما نشرع في مقاربة الذبيحة سوسيولوجيا.

2-2- الذبيحة في الكتاب المقدس:

عرف اليهود والمسيحيون الذبيحة، وإن بشكلين مختلفين في الكم لا في الكيف، فاليهود ما زالوا يذبحون (حتى السامريون منهم)، أما المسيحيون فيرون أن المسيح قد افتدى جميع أتباعه بدمه، وعليه فإن الكتاب المقدس بعهديه "القديم والجديد" لم يكن خلوا من موضوع تقديم الذبائح، بل ربما يكون نصا مؤسسا في ذلك "لأَنَّ نَفْسَ الْجَسَدِ هِيَ فِي الدَّمِ، فَأَنَا أَعْطَيْتُكُمْ إِيَّاهُ عَلَى الْمَذْبَحِ لِلتَّكْفِيرِ عَنْ نُفُوسِكُمْ، لأَنَّ الدَّمَ يُكَفِّرُ عَنِ النَّفْسِ." (سفر اللاويين، 17: 11)، إن الذبيحة عند اليهود هي تكفير وشكر للرب على خلاصهم وكانت علامة على نجاتهم، حيث نقرأ في الكتاب المقدس ما يلي: "وَيَكُونُ لَكُمُ الدَّمُ عَلاَمَةً عَلَى الْبُيُوتِ الَّتِي أَنْتُمْ فِيهَا، فَأَرَى الدَّمَ وَأَعْبُرُ عَنْكُمْ، فَلاَ يَكُونُ عَلَيْكُمْ ضَرْبَةٌ لِلْهَلاَكِ حِينَ أَضْرِبُ أَرْضَ مِصْرَ." (سفر الخروج، 12: 13)، فصار هذا اليوم الذي نجاهم الله فيه من الهلاك لديهم عيدا احتفاليا سنويا "وَيَكُونُ هذَا الْيَوْمُ لَكُمْ ذكرًا، فَتُعَيِّدُونَهُ لِلرَّبِّ فَرِيضَةً لكم مدى أَجْيَالِكُمْ." (سفر الخروج، 12: 14).

إن الذبائح إذن، هي الأعياد، هي الأفراح، وهي الغفران. إن الدم المراق سيحمل خطايا اليهود، وسيكون علامة خلاصهم، وهو قبل هذا وذاك، صك المغفرة، الذي يضمن زوال الذنوب "يأتي بقربانه عن خطيّته التي أخطأ. ويضع يده على رأس ذبيحة الخطية، ويذبح ذبيحة الخطية في موضع المحرقة فيصفح عنه" (سفر اللاويين، 4: 28-31).

لكن ستأتي المسيحية بثورة فكرية شكلية، حيث ترفض جميع القرابين والذبائح، تمهيدا لتثبيت القربان الواحد والذبيحة الواحدة، التي ستنوب وستفتدي الجميع، نقرأ عند وحيد السعفي قوله "انظر الأناجيل، لا شيء فيها يدعو إلى القرابين، لا شيء غير رفض القرابين" (السعفي، 2003، 12)، إن هذا الرفض الشكلي ستعززه نصوص الإنجيل تدريجيا "اذهبوا وتعلّموا معنى القول: إني أطلب رحمة لا ذبيحة." (الإنجيل، 9: 13)، وها هو التدريج يستمر في الإنجيل "فإذا جئت بتقدمتك إلى المذبح، وهناك تذكرت أن لأخيك عليك شيئا، فاترك تقدمتك أمام المذبح، واذهب أولا وصالح أخاك، ثم ارجع وقدم تقدمتك." (الإنجيل، 5: 23-24)، وستسير نصوص الإنجيل في هذا الاتجاه، إلى غاية وصولها لصلب المسيح، فتسرد حكايته، وتقدمه على أساس أنه القربان المخلّص، وأنه افتدى بدمه جميع من اعترف به مخلّصا، وعليه سيكون الاعتراف بالفادي الركن الركين في اللاهوت المسيحي.

وسيستمر الحال كذلك إلى غاية مجيء المصلح مارتن لوثر (1483- 1546) Martin Luther، الذي رفض "عقيدة تحويل القربان إلى جسد المسيح ودمه" (ناتاف، 2005).

2- 3- الذبيحة في الإسلام:

تعتبر سورة الكوثر وهي قوله تعالى «إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (1) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (2) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (3)"، أحد أهم النصوص القرآنية المؤسس لفعل "النحر" و"الذبيحة" و"القربان" في الإسلام، رفقة نصوص أخرى يمكننا أن نذكر بعضا منها في هذا السياق، لتبيان الأهمية التي تكتسيها هذه الظاهرة بمختلف تجلياتها في الإسلام، والتجليات كما نعرف أن هذا الفعل السوسيو-ديني قد يكون "هديا" أو "أضحية" أو غير ذلك، فمن هذه الآيات المؤسسة قوله تعالى "هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ" (الفتح، 25)، وقوله "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ" (المائدة، 95). وقوله أيضا "وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ" (البقرة، 196). وقوله تعالى "وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" (الحج، 36). ويمكننا أن نسوق أيضا في هذا المقام قوله تعالى "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا" (المائدة،02)، وقوله "قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ." (الأنعام، 162).

ومن كل هذه النصوص، يمكن أن تنبثق لدينا مشروعية الأسئلة المرتبطة بهذه الظاهرة الدينية في أساسها، وهي كالتالي لماذا يضحي المسلمون يوم عيد الأضحى؟ وهل "النحر" مرتبط بالحج وفي العاشر بذي الحجة أم بقصة ذبح إبراهيم لابنه؟ وللإجابة على هذين السؤالين يمكننا أن نلاحظ أن "النحر" تأسس في المدينة، وذلك للخبر الوارد عن ابن عمر -رضي الله عنه- أنه قال: "أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة عشر سنين يضحّي" (ابن حنبل، 1971)، وهذا دليل على أنه ارتبط بالحج، لا بقصة إبراهيم وذبحه لابنه (حادثة محاولة إبراهيم ذبح ابنه، يعتبرها بعض علماء الأنثروبولوجيا منعرجا في تاريخ البشرية، لأنها كانت نهاية للقربان البشري وتقديم القربان الحيواني بديلا عنه "فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ" سورة الصافات 102)، لأن النبي لم يضح في مكة، لسبب بسيط هو أن التضحية كانت في مكة جزء من شعائر الحج ولم يكن الغرض منها تخليد ذكرى إبراهيم، فالنحر كان وظلّ طقسا من طقوس الحج، فعن علي -رضي الله عنه- أنه "قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يوم الحج الأكبر، فقال: (يوم النحر)." (الترمذي، 2014)، ويمكننا أيضا في هذا السياق أن نستشهد بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم

من حديث عبد الله بن قرط: "إن أفضل الأيام عند الله يوم النحر ثم يوم القرّ وهو الذي يليه" (البيهقي، 2003).

إذن فالذبيحة في إطار شعائر الحج تكون "نحرا" وخارجه تكون إما "أضحية" إذا توافقت مع "عيد الأضحى" بشروطها الفقهية المعلومة، أو تكون "ذبيحة" متعلقة بوجبة معروف، أو بنذر، أو بمناسبة اجتماعية، كالأعراس والجنائز وغيرهما.

3- الذبيحة: محاولة في بناء المفهوم السوسيولوجي:

للذبيحة بما هي طقس قرباني، وبما هي "عملية نقلة جماعية (Transfert collectif) تتحقق على حساب الضحية وتقوم على التوترات الداخلية والأحقاد والمنافسات والذبذبات العدائية المتبادلة وسط الجماعة" (جيرار، 2009، 28)، أبعاد اجتماعية ودينية وثقافية وسوسيولوجية، بل حتى أبعاد سوسيو-تاريخية وأنثربولوجية.

وتتعدد الأبعاد السوسيولوجية للذبيحة إذا ما تعلق الأمر بالمجتمع المحلي بما هو مجتمع ذو بنية رعوية أساسا، مما يتيح لنا "الربط الوثيق بين الماشية والوجود البشري" (جيرار، 2009، 20) وبما هو مجتمع شبه حضري تكون البنية القبلية حاضرة فيه وخاصة في مثل هذه المناسبات الطقسية، هذه البنية التي "لا تفتأ تستعيد إنتاج بعض ملامحها في مناسبات أو بشكل دوري، وبخاصة حينما تتحرك المصالح الفردية والجماعية.." (منديب، 2006، 12)، فنجد أنه في مثل هذه الحالات والظروف الاجتماعية تلعب الذبيحة دورا مركزيا إذ بها أي "بالذبيحة يتحقق الانسجام بين أفراد الجماعة وتتوثق أواصر الوحدة الاجتماعية.." (جيرار، 2009، 29).

وتمتاز الضحية بما أطلق عليها رينيه جيرار اسم: التجاذب الضدي Ambivalence (جيرار، 2009، 17)، وهو أن قتل الضحية المقدسة جريمة، والضحية لا تكون مقدسة حتى تقتل. وهكذا "تطالعنا الذبيحة le sacrifice في العديد من الأعمال الطقسية rituels بوجهين نقيضين، فتارة هي (شيء بالغ القدسية) لا يسلم من أعرض عنه من تهمة التهاون الخطير، وطورا هي ضرب من الإجرام يجازف مرتكبه بالتورط في مسالك لا تقل عن التهاون خطورة" (جيرار، 2009، 17). ولكي تكون الذبيحة قربانا وليست مجرد عملية قتل لحيوان مسالم وإراقة لدمه، بغية إكرام ضيف، أو تجارة، أو إشباع جوع، وجب أن تكون عبارة عن "مفاعيل منظمة وموجهة ومرتبة في الإطار الثابت المقرر لها." (جيرار، 2009، 30)، وأن تكون هذه المفاعيل مسيّجة بالمقدس، مفارقة للمدنس رغم أنها تتحقق بأدواته.

وترتبط الذبيحة أساسا بثلاثة أبعاد عملية: المعروف (وجبة مقدسة تطوعية أو قهرية اجتماعية)، النذر (إجباري)، الفرض (إجباري)، وتختلف عن الوليمة، العرس، الجنازة، أي لا تمتّ

للمقدس بصلة ظاهرة، ذلك أن "الذبيحة" تصبح مقدسة على المستوى النظري حينما نشرع في استقراء مختلف رموزها بواسطة التأويل.. وبالتالي فهي مكون هوياتي مركزي في فضاءات المقدس، تلعب دورا اتصاليا مزدوجا، فهي بهذه الصفة تعكس مؤشرين كونها تواصل بين المدنس والمقدس، وهي علاقة عمودية لها بعد ذو اتجاهين: التقديم ـــــ القبول/الرفض "إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ" (المائدة، الآية 27)، وهي ثانيا مؤشر تواصل بين المدنس والمدنس، وهي علاقة أفقية ودائرية في نفس الوقت، تعمل على تعزيز الرابط الاجتماعي داخل الفضاء ويمكننا أن نمثل ما ذكرناه في الشكل التالي:

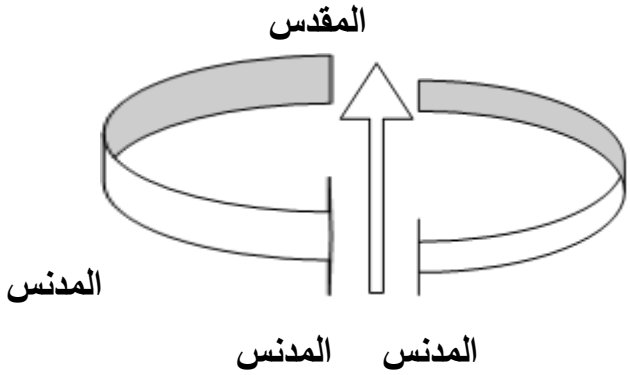

والقبول والرفض على خلاف قصة هابيل وقابيل، حين أرسل الله علامة على ذلك، لا توجد علامات، بل شروط، كارتباطها بالزمان والمكان وبعض الشروط الفقهية البحتة.

هذه الثلاثية تشكل الفضاء القدسي بالمفهوم الهابرماسي، أما الفضاء الجغرافي فيكون محددا في حالات واختياري في حالات أخرى.. وهكذا فان الدم المراق للضحية من شأنه أن يهدئ من روع المضحي ويشعره بالأمان، إنه يزيل خوفه إلى حين، ذلك "لأن تهدئة رغبة العنف –حسبما يشير ستور– هي أصعب من إثارتها بكثير، خصوصا في ظروف العيش العادية داخل المجتمع" (جيرار، 2009، 19)، إن الذبيحة (الضحية لا الأضحية) بهذا المعنى تكون قد "كشفت الغطاء عن المضمر والكامن، ودفعت به إلى مستوى الوعي، إلى السطح" (أبو زيد، 2004، 246–247). وهنا قد يتساءل متسائل فيقول: هذه الضحية صرنا نعرف أنها تزيل الخوف إلى حين، فما بال الأضحية وهي مؤشر فرح وبهجة وعيد؟ فيكون حينها من حق هذا المتسائل أن يعرف أن الأضحية أزالت خوفا أصليا، خوف إسحاق/إسماعيل من الموت، خوف إبراهيم من قتل ابنه، فأبدلتهما مكان خوفهما أمنا.

ولعل الهدف الأسمى للتضحية هو الوصول إلى الهدوء والسلم بعد التخلص من العنف، وعليه فالديني –كما يؤكد روني جيرار– هدفه السلم لأنه "يسعى دوما إلى إخماد العنف، منعه من الاندلاع، أي أن السلوكات الدينية والأخلاقية تهدف إلى اللا عنف بطريقة غير مباشرة في الحياة

اليومية، وبطريقة مباشرة في الحياة الشعائرية" (جيرار، 2009، 36)، حيث أنه "لا يمكن أبدا اعتبار الديني بدون جدوى، فهو ينزع الطابع الإنساني عن العنف، يسحبه منه من أجل حمايته، وذلك بأن يجعل منه تهديدا متعاليا حاضرا على الدوام حيث تتم تهدئته عن طريق الشعائر الدينية والسلوك المعتدل الحذر" (جيرار، 2009، 201-202).

لكن هذا الدم المسال سيكون مبعثا للخطر ولـ"الهلاك" لمن يتخطاه، والهلاك هو التعرض "لضربة جن"، لذا وجب ذر الملح عليه، مع التسمية أي قول "باسم الله"، ذلك أن الملح في المخيال الديني الشعبي ملازم للطهارة، وتحسين مذاق الطعام، قال الشاعر قديما: "من يصلح الملح إذا الملح فسد".

4-في تحديد أقسام "الذبيحة":

القربان عموما إما أن يكون ذبيحة (أي إراقة دم وإسالته) أو غير الذبيحة، وتنقسم الذبيحة في المجتمع المحلي والتي هي ذبح شاة أو عنزة أو خروف أو عجل أو ديك رومي أو دجاجة، إلى ثلاثة أقسام رئيسية: الهدي والأضحية ووجبة المعروف، فأما الهدي فهو شعيرة من شعائر الحج، في الجاهلية والإسلام، اذ تتلخص هذه الشعيرة في كونها ذبح الهدي الواجب على المتمتع والقارن، والمستحب للمفرد، الذي يكون في ختام الحج، في مقام موقوت هو اليوم العاشر من ذي الحجة، يبتدئ زمنه فجر "يوم النحر" في مكان معين هو "منى"، وأما الأضحية فهي ذبيحة صبيحة يوم "العيد الكبير" كما يطلق عليه عموما في شمال إفريقيا لأنه يوافق يوم الذبيحة السنوية، وهو جاهليا "يوم النحر" وإسلاميا "عيد الأضحى"، وتأتي "وجبة المعروف" قسما ثالثا، وهي ذبيحة تطوعية في مقام مقدس، أو زمن مقدس، كمقام الولي، وزمن وفاته أو ميلاده أو إحياء لذكرى كرامة من كراماته، وقد توافق أيضا موسم البذر أو موسم الحصاد، طلبا لـ"عام الخير" والحصيلة الوافرة، أو شكرا لله على ذلك، وقد تكون "وجبة المعروف" إجبارية في حالة النذر إذ الوفاء به واجب، وفي حالة رؤيا إذ تنفيذها واجب، أو حولية إثر عادة أوجبها الفرد على نفسه مثل "الذبح سنويا لسيدي عبد القادر الجيلاني" وفي ذلك يقول الشاعر الشعبي: شاتو (شاته) عند الناس معلومة.

وفي مقام المجذوب الولي الشيخ عبد الرحمن النعاس بورقبة نجد كل أنواع القسم الثالث "وجبة المعروف" التطوعي منها والإجباري، لكن تظل ذكرى يوم وفاة الشيخ في 07 أفريل من كل عام احتفالا مركزيا، ووجبة المعروف فيه أساسية، فالذبيحة فيه تعتبر إذن، وفق مقاربة جان كلود آبريك "النواة المركزية" Le noyau central بالنسبة لبقية أنواع الذبائح التي يعج بها الفضاء بمعناه المكاني الضيق (أي الحوش ودار الشيخ والساحة أمامهما حتى موضع البئر أين يتم الذبح، أو القبة

والضريح وما خلفهما حتى مقام سيدي محاد بن بلقاسم) أو بمعناه الهابرماسي الواسع، وبالتالي فالذبيحة في هذا الاحتفال السنوي تعتبر طقسا أساسيا، ونواة مركزية بها "يتحقق الانسجام بين أفراد الجماعة وتتوثق أواصر الوحدة الاجتماعية" (جيرار، 2009، 29).

5- طقوس الذبيحة في المجتمع المحلي: نموذج فضاء المجذوب النعاس:

محاولة رصد طقوس نحر الذبيحة لا يخلو من مساءلة للتمثلات لكننا سنحاول أن ننصرف عن ذلك إلى وصف لما يجري وكيف تتم عملية الذبح مع الانتباه الابستمولوجي للسؤال الحذر الذي طرحه صاحب رواية "المشعوذون" حين قال: "لماذا توقف تفكيرك عند نوعية الحيوان، ولم ينصرف إلى من قدس الزاوية وصاحبها والتيس والثعبان. لماذا لا تتساءل عن هؤلاء الذين يستعيدون فكرة القربان المقدس الذي كان يتقرب به الوثنيون كأننا لم نغادر القرون الوسطى؟" (براهم، 2016).

ومنه ففي فضاء المجذوب تسند عملية الذبح لمريد بعينه، وعادة ما يكون من العائلة أي من الدائرة الأولى، وفي المدة الأخيرة أي منذ حوالي سبع سنوات شغل هذا الدور المريد (رحمون- ب) (رحمون بورقبة من مواليد مدينة الجلفة عام 1956، عمل في مصالح البريد والمواصلات بذات المدينة، وتقاعد عام 2014م، وهو من قدماء مريدي الشيخ أي من مريدي الطبقة الأولى، أو الدائرة الأولى، كما أنه الابن البكر لأحد إخوة الشيخ (محمد) الملقب بـ(الرب) بضم الراء، أي أن الشيخ النعاس يعتبر أحد أعمامه السبعة، وقد مكث عندهم الشيخ مدة طويلة في "دشرة بن تيبة" شرقي المدينة)، ولعل إسناد المهمة لواحد بعينه، يؤكد وجود ما يشبه تقسيم العمل في مثل هذه الفضاءات الأنثربولوجية، ومنه يمكننا القول أن "تقسيم العمل ينتج التضامن، ليس فقط لأنه يجعل كل فرد تبادلي (مبادلEchangiste) كما يقول الاقتصاديون، وإنما يخلق بين الأفراد نظاما كاملا من الحقوق والواجبات التي تربط البعض بالبعض الآخر بصفة دائمة" (Durkheim)، حيث يقوم المريد (رحمون ب) بحمل القربان المخصص للذبح ويضعه مربوط القدمين بجانب (الحاسي) البئر، في مساحة معينة من الأرض كانت منذ زمن الشيخ النعاس (ت 1993م) مكانا معدا للذبح، فيقوم المكلف بهذه المهمة باحترام طقوس الذبح الديني، وذلك بإعداد آلة الذبح طبقا للحديث الذي رواه مسلم من طريق أبي يعلى شدّاد بن أوس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحدّ أحدكم شفرته وليرح ذبيحته" (النووي، 1984)، ثم يستقبل بها القبلة، ويسمي الله ويكبره، ثم يقطع وتينها، فيسيل الدم على الأرض حاملا هموم مقدم الذبيحة ومحققا لأمنيته، ومحليا يقال: "سيّل الدم يروح الهم"..

وكثيرا ما أمر الشيخ النعاس بالذبيحة كقربان من أجل الشفاء تارة ومن أجل الأمن والسلام تارة أخرى، ففي باب الشفاء نجده مثلا يطلب من أبناء بلعطرة (المعروف بطالب الشنانين لأنه كان

مدرسا للقرآن عندهم) حينما حملوه له مريضا، مشلولا، ملفوفا في "زاورة"، قلنا يطلب منهم قائلا "يا الطالب وكان تدير لنا مصوّر (شاة مشوية) ونداووك"، فما كان من الأبناء إلا أن امتثلوا للأمر رغبة في شفاء والدهم الطالب، وما هي إلا ساعة حتى كان "المصور" الذبيحة المشوية موضوعا على البيرو "مكتب الشيخ ومائدته"، فتذوقه الشيخ النعاس بأصبعه ثم قال للحضور ضعوه داخل "الشميني"، وما هي إلا لحظات حتى أمر الجميع بأن يأكل ويأخذ حصته من تلك الذبيحة المشوية، ثم قال للطالب المريض احمل فراشك وقم.. فقام معافى، وعاش بعدها سنوات وسنوات تزوج خلالها، وحج ثلاث حجات، بل وأصبح رئيس بلدية لعهدتين أو ثلاث.. فالذبيحة هنا تجلت شفاء، بإذن من بيده ملكوت كل شيء، إنها واقعة حقيقية متواترة رواها للباحث أكثر من واحد من شهودها، إنها المعادل الحقيقي لحكاية الشفاء الإنجيلية، غير أن تلك بلا ذبيحة لأن المسيح نفسه هو الذبيحة والقربان والفداء في المعتقد المسيحي، فهو كبش إبراهيم وهو الذي حمل الخطايا بدمه عن العالم.

أما من أجل الأمن والسلام والعافية وأشياء أخرى، لم يدرك كنهها ومعناها شهود العيان، حين لم يهتموا بتأويلها وفق سياقاتها، بل تمثلوها ذبيحة وكفى، أوامر الشيخ المتتالية في أواخر حياته أي في أوج سنوات العنف والإرهاب، كان كلما أهديت له شاة أو عنزة يقول لهم "خذوها لصبع مقران شيّطوا وعيّطوا"، وأصبع مقران هو مقام في منتهى قمة جبلية جنوب شرق المدينة بالقرب من بلدية المجبارة، يأمرهم الشيخ بالذبح هناك، وأن يشووا على النار ذبيحتهم حتى يصيروها حنيذة، فيأكلوا منها وأثناء ذلك عليهم أن "يعيّطوا" أي يرفعوا عقائرهم بالدعاء والتضرع لربهم وبالأناشيد الدينية المرققة للقلوب المقربة من علام الغيوب، كل ذلك بصوت عال يتردد صداه في تلك الجبال، حاملا الأمن بعد الخوف، والاستقرار بعد الهلع، صوت كأنه نداء للأمن والسلام والعافية.

6- الخـــــاتمة:

يتضح لنا مما سبق أن للذبيحة دور عمودي في العلاقة مع المقدس يكتسي بعدا إيمانيا قربانيا فهي تعزز العلاقة مع الخالق "لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ" (سورة الحج، الآية 37) إنها سبيل إلى اليقين إلى هدوء النفس إلى سكينة الإيمان ومغفرة الذنوب كما أن لها دورا أفقيا وذلك بتعزيز اللحمة بين أفراد المجموعة البشرية الواحدة فهي تعزز الروابط الاجتماعية وتعمل على إصلاح ذات البين.

وغير بعيد عن كل هذا ما تمثله الذبيحة في فضاء المجذوب الشيخ عبد الرحمن النعاس أنها تحافظ أساسا على استمرار الفضاء وتعد من بين أهم الآليات التي تعمل على إعادة إنتاج هذا الفضاء بكل طقوسه ورموزه ومعانيه الكامنة والظاهرة.

7- المراجع:

- **القرآن الكريم**، برواية ورش عن نافع.

- أبو زيد نصر حامد، (2004)، **دوائر الخوف قراءة في خطاب المرأة**، ط3، بيروت: المركز الثقافي العربي.

- ابن حنبل أحمد بن محمد، (1971)، **المسند**، شرحه أحمد محمد شاكر، ط2، ج7، القاهرة: دار المعارف.

- الإنجيل كتاب الحياة، (ب ت)، **الإنجيل كما دونه متى**، القاهرة، جي سي سنتر.

- البيهقي أحمد بن الحسين، (2003)، **السنن الكبرى**، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ط3، بيروت: دار الكتب العلمية.

- الكلبي هشام بن محمد بن السائب، (1995)، **كتاب الأصنام**، تحقيق: أحمد زكي باشا، ط3، القاهرة: دار الكتب المصرية.

- **الكتاب المقدس**، (1995)، ط4، بيروت: دار الكتاب المقدس.

- النووي يحي بن شرف الدين، (1984)، **شرح متن الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية**، ط4، دمشق: مكتبة دار الفتح.

- السعفي وحيد، (2003)، **القربان في الجاهلية والإسلام**، ب ط، تونس: تبر الزمان.

- الترمذي أبو عيسى محمد بن عيسى، (2014)، **سنن الترمذي**، ط1، مج 2، بيروت: دار التأصيل.

- براهم عبد الواحد، (2016)، **المشعوذون**، رواية، ب ط، تونس: نيرفانا دار بو جميل للطباعة والنشر.

- جواد علي، (1993)، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ط2، ج6، بغداد: جامعة بغداد.

- جيرار رينيه، (2009)، **العنف والمقدس**، ترجمة: سميرة ريشا، ط1، بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

- منديب عبد الغني، (2006)، **الدين والمجتمع دراسة سوسيولوجية للتدين بالمغرب**، الدار البيضاء، دار إفريقيا الشرق.

- ناتاف أندريه، (2005)، **الفكر الحر**، ترجمة: رندة بعث، ط1، دمشق: المؤسسة العربية للتحديث الفكري، دار المدى.

- Emile Durkheim, (S D), **De la division du travail social**, T2, Paris: PUF, 9ème éd.

كيفية الاستشهاد بهذا المقال حسب أسلوب APA:

عبد القادر حميدة، (2021)، **سوسيولوجيا الذبيحة في المجتمع المحلي فضاء الشيخ عبدالرحمن النعاس بمدينة الجلفة –أنموذجا–**، مجلة تطوير العلوم الاجتماعية ،المجلد 14(العدد 02)، الجزائر: جامعة زيان عاشور الجلفة، ص.ص20-31.